المحاضرة الحادية عشر

المغرب في عهد الدويلات المستقلة الثالث (التاريخ الحضاري) :

كان المجتمع الحفصي خليطا من مجموعة أجناس أصلية ووافدة سواء عربا أو بربرا أو الوافدين من بني سليم وعناصر أخرى من المغرب الأقصى جاءت مع الموحدين (عناصر من القبائل الموحدية) وعناصر أخرى أندلسية هاجرت من جراء استفحال حروب الاسترداد إضافة إلى أهل الذمة والزنوج وغيرهم [1] ، أما عن الزراعة فقد تنوعت المنتوجات الزراعية بين الحبوب والأشجار المثمرة والخضراوات والبقوليات وكثرت البساتين المنتظمة أشجارها وغيرها ، كما تنوعت الثروة الحيوانية كالإبل والغنم والأبقار والخيول وقام السكان المستقرون بتربية الدجاج والنحل والحمام ، كما تنوعت الصناعات كصناعة الجلود والخزف والنسيج والصناعات التعدينية وغيرها وقد ورد أن تونس الحفصية كانت تصنع قماشا ثمينا خاصا لصنع الملابس السلطانية ، كما اشتهرت الزرابي القيروانية ولاقت رواجا كبيرا حتى في أوربا ، كما اشتهرت مدينة نابل بالخزف المطلي والذي كان يصدر إلى الخارج أما مدينة عنابة فقد اشتهرت بصناعة الجلود الملونة .[2]

وعن التجارة فقد ازدهرت وأقام الحفصيون علاقات مع أوربا ، وقد أذن الحفصيون للتجار الإفرنج بالإقامة في افريقية فاتخذوا فنادق ووكالات تجارية ، وكان لكل جماعة من الإفرنج قنصل معتمد في مدينة تونس ، إن النشاط التجاري ساهم في تحصيل الأموال للخزينة الحفصية [3] ، وقد تنوعت الطرق التجارية وتعددت الدكاكين وانتشرت في كل أنحاء الدولة أسواق يومية وأسبوعية ، وكانت

---

[1] روبار برنشفيك : تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، ترجمة : حمادي الساحلي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988 ، ج 2 ، ص ص 157 - 162 .

[2] المرجع السابق ، ص 204 وما بعدها .

[3] عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 90 .

القوافل الإفريقية تتحول إلى الخارج لتبادل البضائع في إفريقيا السوداء أو مصر أو الحجاز ، ومن أهم الصادرات الحفصية الأصواف والجلود والزيوت والتمور والقمح والملح والشمع والشب والرصاص والمرجان وغيرها أما أهم وارداتها فهي التوابل والعطور والأنسجة والأقمشة والورق والخشب والأسلحة والمجوهرات والعبيد السود [4] .

أما عن الحياة الثقافية العلمية والعمرانية فقد شهدت هي الأخرى تطورا وهو ما جعلها تكون مبعث إعجاب كبير في نفوس من زارها إذاك من الرحالة المغاربة والأندلسيين والغربيين والمشارفة (التيجاني ، القلصادي ، ابن بطوطة ليون الإفريقي ...) ، أو حتى ما شهد به المؤرخون أمثال الزركشي أو ابن الشماع (الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية) أو ابن قنفذ (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية) أو ابن خلدون ، فكل أولئك شهدوا بما وصلت إليه تونس الحفصية من نهضة ، فقد كانت تونس مركزا لتعليم العلوم والفنون والآداب وكانت حقلا نشط لحركة التأليف ، كما كانت تونس مركزا لاحتكاك الأفكار والمناقشات الفقهية والخصومات الأدبية والمطارحات الفقهية (كما حدث بين احمد الغساني وابن الآبار ، أو ابن خلدون و ابن عرفة ، أو ابن راشد وخصومه ومنهم إبراهيم بن عبد الرفيع) وذلك بتشجيع من ولاة الأمر وأصحاب الثروة ، وتعددت مراكز التعليم من مدارس وجوامع ومكتبات وزوايا ، ومن أهم المكتبات مكتبة أبي زكريا (36000 كتاب) والمكتبة الفارسية والمكتبة العثمانية والمكتبة العبدلية الشهيرة .[5]

---

[4] روبار برنشفيك : المرجع السابق ، ص ص 459 – 460 .

[5] احمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، منشورات دار المعارف ، سوسة ، د . ت ، ص ص 7 – 10 .

تشكل المجتمع الزياني بشكل عام من القبائل البربرية (بنو عبد الواد ووهران ومعسكر وغيرها، ينو توجين بشلف وونشريس ، بنو راشد بجل عمور ، مغرواة بشرشال وشلف ، مطماطة بالونشريس ، هوارة وغيرهم) والعناصر العربية ، والمهاجرون الأندلسيون وبعض الأقليات من الجاليات اليهودية والنصرانية [6]، أما عن النشاط الاقتصادي فقد تنوعت الملكيات الزراعية في دولة الزيانيين سواء ملكيات عامة أو خاصة ، وقد تنوعت نوعية الأراضي من ارضي سهلية أو ارضي هضابية أو ارضي واقعة على ضفاف الأنهار وهو ما ساهم في تنوع الإنتاج الفلاحي ، كما ازدهرت غراسة الأشجار في الدولة الزيانية ومن أهم المحاصيل الزيانية الحبوب بأنواعها ، وكذا الفواكه كالرمان والتين والزيتون والأعناب والتفاح والمشمش وغيرها ومن الخضروات كالجزر واللفت والباذنجان والقرع وقصب السكر وغيرها إضافة إلى محاصيل أخرى كالقطن والكتان والحنة والكمون ، كما تنوعت الثروة الحيوانية لكثرة المراعي وتنوعها .[7]

كما تطورت الصناعة هي الأخرى وكان هناك الصانع الخواص ، أو الصانع المشترك وهو الذي يستقبل الناس في محله ويصنع لهم ما يتقنه ، وهناك الصانع المتجول الذي يرتحل إلى مختلف المناطق ويصنع للساكنة ما يتقنه ، وخصصت الدولة الفنادق لإيواء الحرفيين كالوراقين والفخارين والعطارين ، ومن أشهر المراكز الصناعية الزيانية تلمسان شرشال والقليعة ومليانة ومزغران قرب مستغانم ومن أهم الصناعات النسيج التي اقبل عليها التجار الأوربيون ، وصناعة الأواني الفاخرة والمنسوجات الحريرية وصناعة السروج واستخراج الفحم ، أما عن التجارة فقد تشكلت طبقات التجار من طبقة أولى تشمل تجار صغار، وطبقة ثانية تشمل تجار

---

[6] مختار حساني : تاريخ الدولة الزيانية ، منشورات الحضارة ، الجزائر ، 2009 ، ج 3 ، ص 9 وما بعدها .

[7] المرجع السابق ، ج 2 ، ص 11 وما بعدها .

أكثر حركية وتداولا للأموال وذوو حركة أوسع ويتنقلون بين المدن ويشاركون أيضا في المبادلة مع تجار أوربا ، وطبقة ثالثة وهم تجار دوليون ويقومون بالسفر أو التجارة مع مختلف الدول ، كما شهدت التجارة الداخلية تنظيما وشهدت الأسواق تخصصا في المنتوجات وقد عملت الدولة على توفير الأمن وتامين الطرق التجارية وتوفير الفنادق للتجار المحليين والأجانب وفَعّلت الدولة نظام الحسبة وهي كلها إجراءات للنهوض بالحركة التجارية [8]

أما عن الحياة الثقافية فقد كانت تلمسان من أهم الحواضر العلمية في العالم الإسلامي ، وكان لعلمائها (من أشهرهم أبو زكريا ويحي المغيلي المازوني الذي ألف الدرر المكنونة في نوازل مازونة وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الشهير وغيرهم) اثر بالغ في الحواضر الإسلامية مشرقا ومغربا [9] ومن أشهر العلوم والعلماء علم التوحيد ومن النابغين فيه محمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي وعلم التفسير (احمد بن عبد الرحمان التلمساني + محمد بن احمد بن مرزوق) ، وعلم الفقه (أبو العباس الونشريسي + أبو جمعة المغراوي الوهراني) وغيرهم كثر ، ومن أشهر المدارس الزيانية التي أسهمت في بعث الحركة الفكرية مدرسة أبناء الإمام (في المطمر) والمدرسة التاشفينية (تلمسان) والمدرسة اليعقوبية (تلمسان) ومدرسة سيدي لحسن [10].

ظهر المرينيون على مسرح الأحداث كقوة ثائرة على الموحدين ومختلفة عنهم في طبيعة النظام السياسي ، إذ أن السلطان المريني انفرد بالسلطة السياسية دون الدينية ، واتخذ الحكام المرينيون لأنفسهم لقب الأمير في البداية (4 أمراء الأوائل) ثم اتخذوا لأنفسهم لقب السلطان بعدها ، وكان منصب ولي العهد من أهم

---

[8] مختار حساني : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 84 وما بعدها .

[9] المرجع السابق ، ج 3 ، ص ص 5 – 6 .

[10] نفس المرجع ، ج 2 ، ص 189 وما بعدها .

المناصب في الدولة والذي كان في الغالب يقوم بدور نائب السلطان إلى وفاة السلطان ، كما ضم جهاز الحكم المريني وزراء وكتابا وحجابا ودواوين وقضاة، وتم تقسيم الدولة إلى أقاليم .

أما عن النظام الاقتصادي فقد اتسم اقتصادها في الغالب بالرخاء وتنوعت موارد الدولة من زكاة وخراج وجزية وضرائب وغنيمة ومصادرات (كل ما يصادر من سلع وأمتعة وغيرها) ، أما عن الصناعة فقد مثلت نشاطا هاما وزدت الساكنة بكل مستلزماتها ، ويذكر الجزنائي أن الصناعة تطورت عما كان عليه الموحدون لاتساع العمران ، ويرجح ابن أبي زرع تطور الصناعة إلى احترافية أهلها بها ، ومن أهم الصناعات استخراج الزيوت وصناعة السكر وصناعة الساعات والإسطرلاب والصناعات الحربية والمنسوجات والسفن وغيرها .

أما عن الزراعة فقد شهدت نموا هي الأخرى لتوفر الموارد الهيدروغرافية وجودة التربة وتنوعها وتعدد المناخات ودعم السلاطين للزراعة (منح الأراضي) ومن أشهر المحاصيل الزراعية القمح والشعير والقطن والزيتون والخضراوات والفواكه وسائر البقوليات ناهيك عن تنوع الثروة الحيوانية كالخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم والنعام والغزال والدواجن ناهيك عن توفر الثروة السمكية لطول السحل المريني .

كما ازدهرت الحركة التجارية لتوفر الأمن فقد سهر المرينيون على تامين الطرق والأسواق واستحدث المرينيون تنظيمات جديدة على طول الطرق الهامة سميت بالرتب وهي خيام تقام على مسافات متساوية (12ميل) يسكنها أهل تلك المناطق[11] ، حتى قال ابن مرزوق ((فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله)) ، كما شكلت الدولة فرقة أخرى اسمها الغرباء لحراسة الطرق وخدمتها فكانوا

[11] وتمنحهم الدولة إقطاعا من الأرض على قدر كفايتهم وتلزمهم الدولة ببيع الطعام للمسافرين وكل ما يحتاجونه ويحرسون أمتعتهم ويضمنون ذلك لهم .

يسهرون على امن التجار ، وهو ما جعل الأمن متوفر زد على ذلك توفر الأسواق الداخلية والخارجية وتوفر المنتوجات المتاجر بها كما جرت العادة باختصاص كل سوق بصناعة بعينها مثل سوق الشماعين وسوق العطارين وسوق الطيبين (باعة البخور) وسوق الكتبيين وسوق الأقمشة والملابس وغيرها ، كما نشطت الموانئ المرينية التي كانت مركزا للتجارة الخارجية وتنوعت البضائع المصدرة إلى أوربا كالمنسوجات الجلدية والصوفية والتي اشتهرت في أوربا باسم merinos ميرينوس ، أما أهم الواردات فهي الآلات الحديدية والنحاسية والأحواض الرخامية وغيرها [12] .

أما عن المجتمع المريني فكان خليطا من الأجناس أهمها العناصر المغربية (قبائل المغرب) والعناصر العربية والعناصر الأندلسية وأهل الذمة [13] ، وقد انطلقت الحياة العلمية في العهد المريني إلى آفاق أرحب وأوسع من سابقاتها ، أتاحت للعقلية المغربية مزيدا من النضوج وذلك بدعم من السلطات المرينية ومن حقول العلم المزدهرة العلوم الدينية كتفسير القرآن (محمد بن يوسف بن عمران المزدغي+ ومحمد بن علي العابد الأنصاري) وعلم القراءات (أبو عبد الله الشريشي الحراز+ أبو الحسن علي بن سلمان الأنصاري القرطبي) وعلم الحديث (محمد بن عبد الرحمان التميمي + محمد بن سعيد بن محمد بن عثمان الأندلسي) والفقيه (محمد بن محمد المقري المعروف بالمقري الكبير+ احمد بن قاسم بن عبد الرحمان الجذامي) والتاريخ (إسماعيل بن الأحمر وكتابه روضة النسرين + وصاحب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية + ابن عبد الملك المراكشي (الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة) + والعبدري صاحب الرحلة الشهيرة + ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس وابن عذاري والجزنائي صاحب زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس

---

[12] محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، ط 1 ، دار القلم للنشر ، الكويت ، 1985 ، ص 259 وما بعدها .

[13] محمد بن احمد بن شقرون : مظاهر الثقافة المغربية - دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني - ، دار الثقافة ، الدار البيضاء (المغرب) ، 1985 ، ص 28 وما بعدها .

وغيرهم) والفلك (عبد الرحمان بن محمد الجاديري) والرياضيات (محمد بن علي بن عبد الله بن الحاج + محمد بن الشيخ الكبير) وعلم الطب (ابن شعيب + محمد بن يحي بن عبد الله بن محمد بن احمد العزفي) [14] ومن المشاهير الآخرين في مختلف العلوم عبد العزيز الملزوزي (أدب) وأبو العباس القباب (أدب) ابن بطوطة الرحالة وابن رشيد الفقيه والأديب وغيرهم [15]

[14] محمد عيسى الحريري : المرجع السابق ، ص 337 وما بعدها .

[15] للاستزادة عن سيرة هؤلاء وآخرين انظر: محمد بن احمد بن شقرون : مظاهر الثقافة المغربية ، ص 57 وما بعدها .